عصر الدولة الوطاسية

(1471-1554)

أ- التاريخ السياسي (ج2)

- السياسات الداخلية والعلاقات الخارجية:

كانت **السياسات الداخلية** للوطاسيين - في العموم- وريثة للسياسات المرينية في عصرها الأخير؛ فمن حيث معالجة الحركات التمردية اكتفت من بعضها باعتراف رسمي ونفوذ رمزي، كتلك التي كانت تخوض نيابة عنها الحرب ضد النصارى (تطوان وشفشاون)، أو كالتي عجزت عن إخضاعها مع أمنها شر توسعها (دبدو).

وكانت تستعمل أحيانا لاحتواء تلك القوى **سياسة المصاهرة** التي تحول الروابط القبلية المتنافرة إلى روابط عائلية، كما فعل محمد الشيخ في إيقافه حربه ضد محمد بن أحمد بن موسى بن حمو صاحب دبدو بإصهاره.

واتجهت في مقابل ذلك نحو القوى المعارضة ذات التوجهات التوسعية (السعديين) إلى مسالمتها في أغلب الوقت؛ لاشتغالها بمعالجة الخطر النصراني المحدق بالساحل المغربي؛ إلا أنها اضطرت بعد تقوي شوكتهم إلى خوض حروب شديدة معهم، إذ كانت حروب بقاء؛ لكنها لم تذخر جهدا في السعي إلى الصلح معهم، خاصة بتدخل الصلحاء.

وسعت لدعم المقاومة المغربية القائمة والمستديمة والمتكررة؛ فرغم ما شيده البرتغاليون في الساحل وما احتلوه إلا أنهم لم ينعموا في البقاء به بأمان، ولا استدامة؛ وقد اضطروا للجلاء عن أكادير وآسفي وأزمور ومشتراية سنة 947هـ (1542م)، وخرجوا سنة 956هـ (1550م) من قصر المجاز وأصيلا.

وتميزت سياساتهم بتعظيمها للصلحاء من أرباب الطرق الصوفية، وخضوعها لتوجيهاتهم، وإغضائها عن تدخلاتهم؛ لقربهم من عامة الناس، وأثرهم الكبير عليهم دينا ودنيا ؛ على الرغم من قلة بضاعتهم في أمور السياسة، وميلهم المفرط للسلم أثناء وجوب الحزم؛ ورغبتهم في تفادي الصدام؛ فكانوا أسوء مستشارين استعانت بهم الدولة.

- **العلاقات الخارجية:**

اختلفت علاقات الوطاسيين الخارجية مع الدول الأوربية والمغربية وغيرها، اختلافا على حسب نفوذ هذه الدول بالمغرب ومطامعها وقوتها العسكرية والاقتصادية:

أ- **مع البلاد الإسلامية:** كان الوطاسيون قد اعترفوا منذ أوائل سلاطينهم بالخلافة العثمانية فنقشوا اسم الخليفة في السكة، ودعوا له في خطبة الجمعة. ولم يكن تدخل العثمانيين يتجاوز ذلك؛ فقد كانوا في شغل من حرب الإسبان في الجزائر، ولم يمنعهم ذلك من تقديم العون لما طلب منهم أبو حسون الوطاسي (961هـ)، ودخلوا فاسا، ولم يبقوا بها طويلا.

أما السودان فكانت علاقة محمد البرتغالي وملوكها قوية؛ فقد ذكر ليون الإفريقي أنه صحب عمه في سفارة (1509م) إلى محمد أسكيا (حكم بين 1493-1528م). وكانت سجلماسة إلى ذلك الوقت مركزا تجاريا كبيرا لتجارة السودان والمشرق، كانت قوافلها تسير عن طريق ولاتة وبحيرة تشاد، بعد انقطاع طريق طرابلس وفزان بسبب هجمات الأعراب.

أما المشرق الإسلامي فقد ضعفت معه العلاقات، وقد صار تحت سلطة العثمانيين، وقوضته القرصنة النصرانية في المتوسط. مع هذا لم تمنع حركة الهجرة والحج التي واصلت التبادل الثقافي بين المنطقتين.

ب- **مع الدول النصرانية:** كان القرن الخامس عشر نذير شؤم على بلاد المغرب كلها؛ ففيه بدأت حركة الاستعمار النصرانية نشاطها التوسعي الكبير؛ معتمدة على أساطيلها التجارية والحربية، وخاصة مملكتي البرتغال والإسبان.

أما **البرتغال** فتاريخ تدخلهم بالمغرب طويل، خاصة في العهد الوطاسي، وقد ذكرنا طرفا منه؛ وقد أنعش هذا التدخل الروح الصليبية لملوكه؛ **ونداءات البابوات** الداعية لغزو المسلمين **(1496م)**؛ والتفوق العسكري البحري الذي سمح لهم باحتلال الساحل المغربي، رغم فشلهم في التوسع في بره؛ ورغبتهم في إيجاد منافذ لتصريف منتجاتهم التجارية. ومع هذا لم يترك البرتغاليون أثرا فكريا يذكر على المنطقة لضعف حضارتهم؛ واكتفى أثرهم في مخلفات أثرية من أبراج ومباني عسكرية ومدنية، نسج على منوالها المغاربة فيما بعد (الصويرة، الدار البيضاء...).

ولعل أول **معاهدة** وقعت بين الوطاسيين والبرتغال تلك المبرمة بعد اكتساح هؤلاء لأصيلا معقل محمد الشيخ الوطاسي، لما كان محاصرا لفاس، فأسرت عائلته وأخذت ماله؛ فاضطر لبعث أخيه محمد الحلو سفيرا، وأبرم هدنة طويلة مع **ألفونسو الخامس** سنة 876هـ (1471م)، أفاد منها الوطاسيون ليدخلوا فاسا، ويؤسسوا سلطانهم.

وترافق الغزو البرتغالي **وحركة مقاومة** مغربية شديدة، اشتركت فيها الدولة، وخاصة أهالي المدن الساحلية كتطوان، التي أصبحت أول مركز للجهاد الشعبي البحري بالمغرب. وتبعها عملية تبادل متواصل للأسرى بينهما.

وتم عقد المعاهدات وتبادل **السفراء** أثناء السلم؛ ففي سنة 1538م وقعت معاهدة مهادنة لمدة إحدى عشر سنة بين السلطان أحمد الوطاسي وملك البرتغال جان الثالث، وأصبح **باستياوو دي فرجاس** (Bstiao De Vargas) مبعوثا لملكه. كانت مهمته اقتصادية من الوجهة الرسمية، يشتري القمح المغربي لبلاده، ونافسه في مهمته التجارية غيره، خاصة اخو ملك البرتغال النازل للمغرب للتجارة.

كما كانت الحرب مع السعديين مدعاة للهدنة مع البرتغاليين، لأجل التفرغ لهم؛ فيبدو أنه تمت هدنة بين السلطان **أبي العباس الوطاسي** وملك البرتغال سنة 932هـ (1526م)، بعد ظهور السعديين؛ وعقد صلح آخر معهم سنة 940هـ (1534م)، بعد معركة أنماي قرب مراكش. ثم كانت معاهدة سنة 945هـ (1538م)، التي وقعها مفوض الوطاسيين قائد شفشاون **ابراهيم بن راشد** وقائد أصيلا **كوتنهو** (Coutinho)، نصت على هدنة لإحدى عشر ستة برا وبحرا بشروط سبعة، منها: أن يؤدي المغاربة المقيمين قرب البرتغاليين إتاوة سنوية تتضمن عشر خيول؛ وحرية التجارة بينهما باستثناء الأسلحة والمواد الحربية، منع استقبال السفن المعادية لأحد الطرفين...؛ إلى أن فسخ هذه المعاهدة السلطان أحمد الوطاسي سنة 950هـ (1543م).

أما **بريطانيا** فشهدت أواخر عهد الوطاسيين علاقات اقتصادية معها؛ ففي سنة 1551م (959هـ) أبحر القرصان القديم **توماس وندهام** (Thomas Windham) بباخرتين ونزل أكادير (سانتا كروز)، وعاود السنة بعدها قائدا ثلاثة بواخر عليها 1120 رجلا، أكثرهم من التجار، حاملين كمية ضخمة من المسك والعنبر والمرجان وغيرها، وجال تجارها بآسفي ومراكش وأكادير؛ وحملت معها السكر واللوز وغيرهما من البضائع المغربية. واتسع بعد هذا نطاق العلاقات التجارية بين البلدين، وتواصلت حركة السفن البريطانية في الرسو بالموانئ المغربية.

أما **فرنسا**؛ ففي سنة 1533م نزل بالعرائش الكولونيل **بيير دو بيطون** (Pierre De Piton)، مبعوث الملك **فرانسوا الأول**، حصل من سلطان فاس على امتيازات كحق جلب الدواب من المغرب، والسماح للبواخر الفرنسية بالرسو والمرور بأمان وحمايتها، وقدم هداياه وحمل معه هدايا للملك الفرنسي. وتتابعت بعدها الحركة التجارية الفرنسية بالمغرب.

- **عوامل سقوط الوطاسيين**:

كانت الدولة الوطاسية في حقيقتها امتدادا لمرحلة الضعف ونهاية للدولة المرينية الكبرى؛ إذ كانت في حقيقتها جزءا منها؛ لذا كانت أعراض ضعف الدولة فيها هي نفسها أعراض ضعف الدولة المرينية، شابهتها في كثير من أعراضها، فمن ذلك:

أ- كان أكبر خطر أضعف سلطان الوطاسيين هو الغزو البرتغالي على السواحل المغربية، حيث كان غزوا استعماريا يبحث عن وضع قدم دائمة بالمنطقة، مع ما كان يتميز به من تفوق في التسليح والتنظيم، وقابله أيضا الغزو الإسباني المحتوي على مليلية وغساسة. وإن استطاع المغاربة حصر هذا الغزو بالساحل.

ب- وزاد من ذلك التنافس الاسباني البرتغالي على سواحل بلاد المغرب والأطلسي؛ وقد تدخل فيه البابوات، وعقدت عليه معاهدات، كان أهمها معاهدة **"توردیسلاس"** (Tordescilas) (07 جوان 1494م)، نصت على أن يكون غرب الرأس الأخضر حدا فاصلا بين نطقتي النفوذ، حيث احتفظت إسبانيا بغربيه، والبرتقال بشرقيه، مع استثناء جزر كناريا والساحل الشمالي للمغرب لصالح إسبانيا.

ج- استقلال شبه تام لبعض حواضر المغرب الكبرى- لعجز الوطاسيين عن توحيد المغرب- والتي صارت تسيرها عائلات متنفذة توارثت السيادة عليها؛ مما أضعف هيبة الدولة، وأعاق تسييرها لشؤون البلاد؛ وسيتحول بعضهم إلى منافسيين حقيين لها. فقد كانت تطوان بيد بني المنظري، وشفشاون بيد بني راشد، ودبدو وتازوطا بيد بقايا بني مرين، ومراكش بيد قبيل هنتاتة، ومنطقة السوس بيد السعديين منذ أيام سلطان الوطاسيين الثاني. ولم يسيطر الوطاسيون فعليا إلا على منطقة الريف، وسهول المحيط، وجبال الأطلس، والنواحي الشرقية والجنوبية الشرقية.

د-بزوغ ظاهرة **الصلحاء** بشكل كثيف، وفزعت الناس إليهم بعد ضعف الدولة عن حمايتهم من عدوان النصارى خاصة؛ فصار لهؤلاء سلطانا روحيا وأحيانا سياسيا ظهر في حروبهم ضد البرتغال والإسبان. وظهر في وسطهم دجالون استغلوا تلك الحال للإفادة من سذاجة العامة فثاروا على الدولة؛ ويذكر منهم عمرو بن سليمان السياف **المريدي** (ت 890هـ/1485م) تلميذ الجازولي الذي دامت حركته ببلاد السوس العشرين سنة، اقترنت بأفعال مشينة ودعاوي دينية كبيرة.

ه-ولم يكن لبدو العرب ضرر كبير على الدولة، رغم أنهم بقوا ينهبون في بعض المناطق الغنية، ولم يعد لهم دور سياسي يذكر في توجيها كما كان، بل عكس ذلك إذ أصبحت الدولة تستعين بهم في معاركها، فكانوا عونا لها أكثر من عائق.

و- ظهور السعديين قريبا من ظهور الوطاسيين، ومعارضتم في أمر الدولة، ومنافستهم في سياسة البلاد، وإشغالهم لهم عن عدوهم النصراني المحدق بهم، بل عدم عونهم لهم في ذلك؛ مع التفاف الناس حولهم لنسبهم العلوي الذي كان عند المغاربة سلطانا روحيا لا ينازع.

ز-كما أن استقامتهم في ألاعيب السياسة كانت وبالا عليهم؛ إذ لم يعرف عنهم كسابقيهم وخالفيهم القسوة والصرامة في التعامل مع المتمردين؛ بل سايروا أحيانا رغبة العامة، وإن كانت مضرة بمصلحة الدولة. كما لم يستعملوا طرق السياسة ضد المعارضة، كالاغتيالات والتنكيب والتفقير وغيرها؛ فأضعف ذلك سلطانهم. والتحم ذلك مع ضعف سياستهم أحيانا وترددها؛ إذ تركوا البحث عن عون

خارجي (الترك) إلا في نهاية دولتهم؛ كانوا مترددين في مواجهة عدوهم بين النصارى المهاجمين وبين الخضوع لتوجيهات الصلحاء، ومقاومة الحركات الانفصالية أحيانا، والإغضاء عن نشاط بعضها أحيانا أخرى.

ح- كما لم يسع الوطاسيون لتقوية جيشهم، ولا خططهم العسكرية؛ فبقيت أسلحتهم بدائية بعيدة عن سلاح عدوهم النصراني، وكانت مصانعهم الحربية لا تفي حاجتهم، ومع هذا افتقر جيشهم للنظام وللكفاية أثناء الحروب؛ لاضطراب البلاد عليهم، وقلة الناصر لهم في أحلك الأوقات.